وقد كان لملوك الشرق واسرائه عناية كبيرة بالصيد قيل ان احد سلاطين المغول كان عنده عشرة آلاف من الفهود وان الصقارين والبزادرة والفهادين والكلابين الذين كانوا في خدمة الصقور والبزاة والفهود والكلاب عند السلطان بايزيد الاول كانوا جيشاً يبلغ عدده اثني عشر الفاً وان قلائد بعض الفهود كانت مرصعة بالحجارة الكريمة . اما الافرنج فلم يكن يسمح عندهم باقتناء الكلاب السلوقية الاَّ للامراء والاعيان فكان من دلائل النبل عندهم ان يكون للواحد منهم جواد وباز وكلب سلوقي لذلك قال الجغرال دوماس ان عناية اهل المغرب بالكلاب السلوقية من دلائل الكرم . وقد كان العرب يفاخرون بهذه الكلاب ايضاً كما يستدل من كثير من اشعارهم وكان لها اسماء والقاب مشهورة عندهم . قال الجاحظ « ولكرامها وجوارحها وكواسبها واحرارها وعتاقها انساب قائمة ودواوين مخلدة واعراق محفوظة ومواليد محصاة مثل كلب جذعان وهو السلهب بن البراق بن يحيى بن وثّاب بن مظفّر بن محارش »

هذا ما رأينا ذكرهُ عن الكلاب السلوقية اجابة لطلب احد المشتركين فعسى ان يكون فيه بعض الفائدة لهُ ولغيره من القراء

الكتابة والكتب

من خطبة لحضرة الفاضل احمد بك زكي السكرتير الثاني لمجلس النظار القاها في نادي موظفي الحكومة بالاسكندرية

قال بعد مقدمة سهلة

ان المصريين الاقدمين تركوا لنا كتبهم منقوشة على صفحات الجبال وفي بطون المغارات وعلى احجار البرابي والاهرام والمسلات

اما الاشوريون فقد اكتشف النقابون في هذه الايام مصاحفهم مرقومة على اللبن وهو الطوب المشوي او المطبوخ . وذلك لان ارض ما بين النهرين مكونة من طمي دجلة والفرات فليس فيها جبل ولا حجر . ولكن ذلك لم يقف حجر عثرة في سبيل الغرام بالكتب فصاروا يرقمون بالمسمار على الطين وهو شيء يشوونه في النار استبقاء لكتاباتهم على مر الادهار والاعصار

ثم انتشر هذا الغرام في مصر وهم وطم فاحتاج القوم لزيادة الكتابة واحسوا بما في النقش على الاحجار من الصعوبة فعادوا الى الطبيعة وهي الهادي الاكبر للبشر . فاخذوا البردي

وعالجوه بما جعله صالحاً للكتابة . وها هي آثاره في دار العاديات المصرية بقصر النيل في القاهرة . واكثرها في متاحف اوربا . واما الصين والهند فقد كفتهم دودة القز هذه المؤونة في القيام بما يدعوهم اليه انواع الكتب والكتابة . واذا نظرت الى بني الاصفر واعني بهم اليونان والرومان تجدهم قد استعانوا بالحيوان فعالجوا الجلود وصنعوا منها ما نسميه بالرقوق

واول من استنبط ذلك الاغارقة من اهل فرغامة . وهي مدينة بآسيا الصغرى تسمى عندهم برجامة فصار اسمها علماً على هذا المصنوع من الرقوق . ولا يزال باقياً عند جميع الافرنج الى الآن . فان اهل ايطاليا يسمون الرق (بفتح الراء) برجامينو اي الفرغامي لان العرب تقلب الباء الفارسية الى الفاء للقرب المخرج كما قالوا في Plato افلاطون وهكذا واما الاسم العربي فهو مأخوذ من ترقيق الجلد بعد دبغه

اما العرب قبلادهم جرداء فحلاه فلم ينقشوا على الاحجار . ولم يطبخوا الطين على النار . ولم ينسجوا الحرير . ولا استخدموا البردي . ولم يهتدوا الى صناعة الترقيق . ولكن ذلك لم يكن حائلاً دون غرامهم بالكتابة والكتب . فكانوا قبل الاسلام وفي عصر النبوة يكتبون على عسيب النخل اي قحوف الجريد لكثرة هذه الشجرة المباركة في بلادهم . ويكتبون على الواح العظام (وكثرتها ناشئة عن ذبح الاضاحي) ويكتبون على نوع من الاحجار المصقولة التي يلتقطونها من فيافيهم وبواديهم

ونقف بالكلام على العرب دون سواهم من الامم الاخرى . فانهم ما لبثوا في خلافة الصديق ومن جاء بعده من الخلفاء ان انتشروا في الارض . فاخذوا عن اهلها اساليب الحضارة ثم احتاجوا الى التبسط في الكتابة لاتساع الملك واستجمار العمران . فكتبوا في العراق على الحرير وسموه بالمهراق وكتبوا في مصر على البردي ولا تزال آثاره باقية في اوربا وبعضها في القاهرة في دار الكتب الخديوية . وكانوا يكتبون على هذا البردي باللغة العربية وحدها تارة ومصحوبة بالترجمة الرومية او القبطية تارة أخرى . ولا تزال هذه سنة مطردة في ديارنا . اعني بها سنة الاحتياج الى لغتين مثال ذلك . الاحجار واوراق البردي في عهد اليونان . تراها مكتوبة بلغتهم وباللسان المصري القديم . وفي عهد الرومان حل اللسان اللاطيني محل اليوناني . حتى جاء العرب فكان من شأنهم ما ذكرنا . ثم انقضت مدة طويلة من ايام المأمون الى آخر الدولة الايوبية . استقل فيها اللسان العربي . حتى جاءت دولنا المماليك الجركسية والجركسية فاندمجت في اللغة العربية بعض الفاظ واصطلاحات دخيلة من التركية . ثم جاءت دولة العثمانيين فكانت الحياة في عنفوان الممالك الاتراك . وحينئذ

طما بحر اللغة التركية وصارت تزاحم لغة البلاد . واستمر الحال على ذلك بعد جلوس الفرد الفذ العظيم « محمد علي » فابغة العصر الجديد الى ايام سعيد . وبعد ذلك بدأت الفرنساوية تحل قليلاً قليلاً محل التركية . وها هي الآن تتأخر في الميدان امام اللغة الانكليزية . والحق يقال ان لغة البلاد اخذت في الانتعاش كثيراً بفضل خديوينا المحبوب عباس الثاني . وبفضل حكومته الرشيدة السعيدة . وبفضل المحاكم والجرائد . وسترون عما قليل حسنة جليلة من اكبر محاسن الحكومة الحاضرة يرتفع بها منار هذا اللسان وتتجدد معها آداب العرب وعلومهم

نرجع الى الكتابة والكتب فنقول ان العرب ما عتموا ان استخدموا الجلود بعد ترقيقها وكان من مزاياها عندهم انهم كانوا يغسلونها ويجلدون الكتابة عليها . فرأوا أن ذلك وان كان صالحاً في بعض المعاملات الوقتية ففيه ضرر كبير على العلم كما رأوا من جهة اخرى ان الحرير يدعو الى مؤونة كبيرة مع ان الحاجة ماسة الى الاكثار منه . ومن الرق بل رأوا في ايام هارون الرشيد انهم كانوا مقلدين لغيرهم من الامم وان ما وصلوا اليه من الحضارة والرجحان يوجب عليهم الاخذ باسباب الاختراع والاستنباط . فكانوا اول من اصطنع الورق على هذا الشكل الباقي الى ايامنا هذه وحسبهم ذلك فخاراً . وقد سموه بالكاغد ثم بالقرطاس ثم شاع اسم الورق وانتشرت معامل الورق من الخرق اي من الكهنة في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتقلت الى بلاد الغرب فكان لهذه الصناعة شأن كبير في بلاد الاندلس واشتهرت مدينة شاطبة بمعاملها ومصنوعاتها التي فاقت في الجودة والاحسان والاتقان وأربت على ما بلغه اهل المشرق من هذا الباب . ومن شاطبة كان الكاغد يحمل الى سائر بلاد الاندلس . ومن هناك انتقل الى افرنجة (فرنسا) ثم الى بقية ديار اوربا وقد ابلغه القوم في هذه الايام الى نهايات ما يخطر بالاحلام واتوا في ذلك بالعجب العجاب حتى صاروا يصنعونه من الاخشاب وانعدمت هذه الصناعة من ديار الشرق كلها فصار عالة على غيره فيها وفي غيرها

حينئذٍ توفرت عند العرب الاسباب المادية والعقلية فابدعوا في التصنيف واغربوا في التأليف وتهافتوا على جمع الكتب وتطلبها يستوي في ذلك السلطان والسوقة والخاصة والعامة والرجال والنساء وجميع الطبقات حتى كثرت دور الكتب في القاهرة وامهات المدائن المصرية بدرجة لا تتصورها الآن لان بلادنا اصبحت خلواً منها بالمرة لولا تلك الصيانة القليلة الباقية في دار الكتب الخديوية وفي الازهر الشريف . تتلوها المكتبة الحديثة التي انشأتها البلدية في الاسكندرية . اما البيوتات فقد اصبح عددها اقل من اصابع اليد الواحدة وأوفاها بيت السادات يتلوه بيت البكري فبيت المرحوم رفاعة وعبدالله فكري . واما الافراد فقد قلت

التنظر فلم ارَ غير المرحوم لطيف باشا سليم وحضرة الفاضل احمد بك تيمور

وقد اردت ان اجري على هذا المنوال وان كانت خطواتي صغيرة و يدي قصيرة ولكنني خشيت ان تذهب مجموعتي من بعدي للعطار والزيات والبقال ، و تفرق شذر مذر كما حصل للمجموعة النفيسة التي كانت تزدان بها دار المرحوم علي مبارك باشا في حياته . لذلك جعلتها من الآن خاصة بالامة ولا ازال دائمًا الى آخر ساعة من حياتي على توسيع نطاقها والزيادة فيها

اذا رجعنا بيصرنا الى التاريخ رأيناهُ يحدثنا عن دور الكتب في القاهرة فتأخذنا لوعة لمجرد هذا الوصف ولبكي على ذهاب العين والاثر

فدور الكتب التي اسَّسها الفواطم يحدثنا المقريزي عنها بما يثير الاشجان ويستمطر الدموع من الآماق . فقد كان في قصر الخلافة وحدهُ اربعون خزانة كانت فيها النوادر والذخائر فاخذ معظمها بعض الموظفين وبعض الاجناد الاتراك بدل مرتباتهم في ايام الشدة التي وقعت للخليفة المستنصر

وقد نهبت عرب لوانة شيئًا كثيرًا منها اغرب المقريزي في وصفه ثم قال ان شيدهم واماءهم اخذوا جلودها يرسم عمل ما يلبسونهُ في ارجلهم واحرقوا ورقها تأوُّلاً منهم انها خرجت من قصر السلطان اعزالله انصارهُ وان فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليهِ الرياح التراب فصار تلالاً باقية الى اليوم بناحية آثار تعرف بتلال الكتب

هذا عدا خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل اليها احد وعدا خزائن دار العلم بالقاهرة (وهي مماثلة لما نسميهِ الآن اكاديميا او كما يقول صاحب كشف الظنون وابن ابي اصيبعة قبلهُ اقاذيميا) وسوى خزانة المارستان العتيق وقد بقيت الى ان بيعت في ايام صلاح الدين فاشترى القاضي الفاضل وحدهُ منها مائة الف كتاب مجلد واودعها في المدرسة التي انشأها بالقاهرة . وفضل القاضي الفاضل ومكانتهُ في الدولة الايوبية يدلان على انهُ اختار افضل الكتب واحسنها ولكنها ذهبت بها الايام ايضًا فان الغلاء لما وقع بارض مصر في سنة ٦٩٤ صار طلبة هذه المدرسة يبيعون كل مجلد برغيف من الخبز . وبقيت منها بقية تداولتها ايدي الفقهاء بالعارية فتفرقت . وكان فيها مصحف اشتراهُ القاضي الفاضل بنيف وثلاثين الف دينار على انهُ مصحف الخليفة عثمان وكان في خزانة مفردة لهُ غربي المحراب . وهذا القاضي الفاضل كان يقتني الكتب من كل فن ويجتلبها من كل جهة ولهُ نسَّاخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون وقد بلغ مجموع كتبهِ قبل موتهِ بعشرين سنة ٢٤٠٠٠ مجلد . طلب ابنهُ مرة ان يقرأ ديوان

الحماسة وتوسل الى ذلك ببعض المقربين لديه فامر القاضي الفاضل فاحضر له خازنة ٣٥ نسخة فصار يتفقدها واحدة واحدة ويقول هذا بخط فلان وهذه بخط فلان حتى اتى على الجميع ثم قال ليس عندي ما يصلح للصبيان وامر بشراء نسخة بدينار لولده . وقد احضرت مجموعة رسائله في جملة ما احضرته من الكتب

وقد بقي بعض الكتب من آثار الفاطميين في مصر وزاد عليها المماليك وجعلوا لها خزانة عمومية ولكنها احترقت في سنة ٦٩١ فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً كان من ذخائر الملوك والذي نجا من النار انتهبه الغلمان وباعوه بابخس الاثمان فنظر الناس منها بصحائف محرقة فيها نفائس غريبة

ولم تكن هذه المدرسة هي الوحيدة في القاهرة فقد كانت خزائن الكتب في المساجد والجوامع والمدارس فضلاً عن القصور والمنازل . وحسبي الاشارة الى بعض المدارس التي امتازت بجمع الكتب النادرة فمنها المدرسة التي انشأها بمصر القديمة في سنة ٦٥٤ الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا فقد كانت فيها خزانة جليلة من الكتب النادرة ثم نقلها فبقيت عنده حتى مات فتفرقت في ايدي الناس . وكذلك الملك الظاهر بيبرس البندقداري جعل في مدرسته الظاهرية خزانة كتب تشتمل على امهات الكتب في سائر العلوم

فلما تولى السلطان قلاوون جعل في قبته البديعة خزانة للكتب في جميع انواع العلوم ولكن معظمها تفرق في ايدي الناس . واقتدى به ابنه محمد فانشأ خزانة كتب بمدرسته التي شادها بجوار هذه القبة في الجهة المعروفة الآن بالنحاسين

واما اسماء الامراء والافراد فهي كثيرة جداً مثل الامير متكوتمر سيف الدين الحساني والحاج سيف الدين آل ملك والامير سيف الدين الجاي والطواشي سابق الدين مثقال والطواشي سعد الدين بشير الجمدار

واهم الكل الامير جمال الدين محمود الاستادار وسأجعل له محاضرة مستقلة

ولا انتقل من هذا الموضوع قبل ان اذكر لكم ان نساء مصر كان لهن مشاركة في هذه المأثرة وحصة كبيرة في الغرام بالكتب واكتفي الآن باسم الست عائشة بنت ساروج الاسدي وكانت عائشة في ايام صلاح الدين والست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون بنت الملك العادل الايوبي وكانت من فضليات اهل العلم واشتهرت بالبراعة في الفصاحة وفنون الادب والسيدة الجليلة الكبرى خوندتر الحجازية بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون والست بركة ام السلطان الملك الاشرف شعبان والست ايديكين زوجة

الامير سيف الدين بكجا الناصري

وقد بدَّد الزمن آثر تلكم السيدات الكريمات فلم اقف على كتاب من تلك الخزائن الكثيرة وغاية الامر ان في دار الكتب الاهلية بباريس ثمت نمرة ٢٧٥١ كتاباً في علم تعبير الرؤيا وهو مرتب على حروف الهجاء بشكل معجم ومكتوب في سنة ٨٣٣ هجرية برسم خزانة اميرة من امهات مصر (احدى البرنسات) وهي بنت السلطان الملك الظاهر جقمق

كان هذا الغرام عاماً في مصر وفي جميع بلاد الشرق . وخصوصاً في الممالك الخاضعة لصولجان صاحب الخاج في القاهرة التي كانت عاصمة للامبراطورية المصرية . والشواهد كثيرة على هذا الولوع وحسبي ان اذكر لكم اسماً واحداً من باب التدليل وهو ابو الفدا سلطان حماه وصاحب التاريخ المشهور بالمختصر في اخبار البشر وصاحب الجغرافيا المسماة بتقويم البلدان الذي طبع وترجم في باريس قد جمع في خزانته من الكتب مالا مزيد عليه وكان في خدمته ما يناهز مائتي معلم من الفقهاء والادباء والنحاة والمنجمين والفلاسفة والكتبة

ولو اردت ان استقصي ما اعرفهُ عن الكتب وغرام المولعين بها ايام كانت الحضارة الاسلامية زاهية زاهرة لطال المقام ولم تكفني الايام لتلوها الايام

وقبل الختام اذكر لكم قضية وقعت بمصر وهي من اغرب ما سطرتهُ سجلات القضاء

وقفت على كتاب اسمهُ كنز الدرر وجامع الغرر لابي بكر بن عبدالله بن ايبك الدوادار وهو في تسعة اجزاء ثلثاها بمكتبة ايا صوفيا والثلث الباقي بمكتبة طوب قبو بالقسطنطينية وهو في تاريخ مصر وفيهِ تفصيل غريب وبيان وافر لا نراهُ في التواريخ التي وقعت الينا وليس هذا محل الشرح عن هذا السفر الجامع النافع . وقد كان هذا الكتاب موقوفاً على احدى المدارس بالقاهرة فاغتصبهُ بعض الاكابر واوقفهُ على مدرستهِ وقفاً صحيحاً شرعياً مرعياً فاقيمت عليهِ قضية بمجلس الحكم وحصلت المرافعة والمدافعة ثم اصدر القضاة حكمهم ببطلان الوقف الثاني واعادة الكتاب الى مقرهِ الاول باسم واقفهِ الاول . وقد قضت الايام ببطلان هذين الوقفين وبانقسام الكتاب الى شطرين في خزانتين . ولكن في غير مصر وان شاء الله يعود الدر الى مكنهِ ويرجع هذا المراحل الى موطنهِ

ذكرت لكم هذه العبارة بالاختصار لان الامر مشروح بالتفصيل على طرة كل جزء من الاجزاء التسعة مع اسماء الخصوم والعدول والشهود والقضاة وغير ذلك من البيانات الشرعية والتاريخ وسأوفي هذا الكتاب حقهُ في فرصة أخرى بعون الله لاني احضرتهُ في جملة ما استخرجتهُ من كنوز القسطنطينية